عندما يُغلَبُ يسوع والغالبُ امرأة
شرح لنصّ المرأة الفينيقيّة (مر ٧: ٢٤–٣٠)

عندما كنتُ على مقاعد دراسة اللاّهوت، قصدتُ مرّة أن أسأل أستاذي في مادّة العهد الجديد عن نصّ المرأة الفينيقيّة وعن الحوار "المشكِّك" الذي دار بينها وبين يسوع. ما زلتُ حتّى اليوم أذكرُ الردّ، وقد أتى عفويًّا: "هنا المرأة علّمت يسوع الذوق، وكيف يجب عليه أن يتكلّم مع امرأة وثنيّة". لكن هل القضيّة هي حقًّا قضيّة ذوق واحترام؟ في الواقع تكثر الأسئلة حول هذا النصّ. هناك "لماذا" كثيرة تُطرَح: لماذا فينيقيا؟ لماذا امرأة وثنيّة؟ لماذا هي "كلبة"؟ لماذا هذه القساوة في التعبير؟ لماذا الممانعة في الشفاء؟ ولماذا الرضوخ أخيرًا؟... منذ ذلك الوقت، وخوض غمار هذا النصّ "في عيني". والآن حانت "ساعته".

لماذا صُور؟

يسوع عند مرقس في سَير دائم، رُحَّل، دائمًا على الطريق. قَدَته خطاه نحو الشمال، إلى لبنان. وصُور، جارة الجليل الشماليّة، كانت المحطّة التي لا بدّ منها. هي نفسها، بعد عشرات السنين، ستستضيف بولس ما إن يحطّ رحاله على أرض فينيقيا (أع ٢١: ٣). لكن لماذا صُور؟ للإجابة لا بدّ من إلقاء نظرة عمّا كان يجري في الجليل.

في الواقع عانى يسوع بين أهل دينه اليهود أزمات فشل. إنّها "أزمة الجليل" كما سمّاها لاحقًا بعض الباحثين[١]. فالفرّيسيّون والكتبة لا يشاطرون يسوع أفكاره، ويُنهكوه بمجادلاتهم (مر ٢: ١–٣: ٦)، ولما أفحمهم أعدّوا العدّة لقتله (٣: ٦). وأهل بلدته الناصرة كانوا أبعد الناس عن الإيمان به (٦: ١–٦)، ولم يشذّ عن ذلك أهل بيته بالذات (٣: ٢١). وتلاميذه لم يكونوا أرفع قدرًا من غيرهم، فهم أيضًا أحبطوه مرّات عدّة (٤: ١٣). في حين أنّ أغلب من تَبِعَه، لم يروا فيه سوى شافٍ وصانع عجائب. لهذا طار صيته بين الناس، كالنار في الهشيم، وأخذوا يضايقونه، حتّى في أوقات راحته مع تلاميذه (٦: ٣١). ولما قرّر يومًا عبور البحيرة نحو الجانب الآخر، إلى المدن الوثنيّة، النجسة، علّه يجد له مكان راحة بعيدًا عن الجماهير، هناك أيضًا كان ينتظره مَن ينتظر الشفاء (٥: ١). شفاءات أينما كان. وأكثر من كان يشفيهم الممسوسون الذين تعذّبهم الأرواح النجسة. كان إبليس، حسب عقليّة ذلك الزمان، بمثابة "مكبّ نفايات"، بمعنى أنّ كلّ مرض مستعصٍ لا تفسير له كان سببه يُرَدّ إلى إبليس. الحقّ على إبليس! وكأنّ الشيطان اجتاح المدن ولم يترك أحدًا ينجو من أذى شرّه. فكثر الممسوسون وزادت

---

[١] راجع مثلاً: Pierre GRELOT, *Jésus de Nazareth Christ et Seigneur* I, Novalis/Cerf, Montréal/Paris 1997, pp. 377-441.

الاضطرابات. والكلّ كان يتهافت على ابن الناصرة ليتحرّر. لذلك إنّ أكثرَ ما يقع عليه قارئ الإنجيل الثاني هو صورة يسوع المعزّم والمحرّر من الشياطين. صيتُه كطارد شياطين سبقه أينما حلّ، حتّى إلى صُور. لم تنفع محاولاته التخفّي والانزواء داخل أحد البيوت. في الحال عرفت بخبره امرأة من أهل البلد. إذًا لم يذهب يسوع إلى صُور في حملة تبشيريّة، بل قصدها إلى حين، إمّا تجنّبًا لمضايقات الفرّيسيّين، وإمّا رغبةً في الراحة والسكينة. لنقل "سياحة" لبنانيّة!

حتّى التلاميذ لم يَرد يسوع أن يصحبوه، بل ذهب وحيدًا. ولمن يعرف خفايا إنجيل مرقس يجد هنا أمرًا عجيبًا. فالإنجيل الثاني هو أكثر مَن ألصقَ التلاميذَ بيسوع. كانوا معه دائمًا. أينما حلّ هم برفقته سائرين معه على الطريق. في الأصل أوجدهم يسوع ودعاهم "ليكونوا معه" (مر ٣: ١٤). أمّا هنا فأراد مرقس أن يُبعدهم عن يسوع، بينما متّى، في نصّه المقابل، أبقاهم بقربه، ولهم في المشهد مداخلات وكلام (مت ١٥: ٢١-٢٨). نصّ متّى أكثر كنسيّة، وربّما أدخل التلاميذ كي يخفّف من وطأة المواجهة بين المرأة ويسوع.

لماذا امرأة وثنيّة؟

ما لم يقله النصّ يقوله المنطق: كانت هذه المرأة الفينيقيّة تنتظر بالتأكيد وبلهف مجيء ابن الناصرة إلى ديارها. أخبار شفاءاته بلغت مسمعها، لأنّ بين صُور والجليل الأسفل، حيث يتمركز نشاط يسوع، كثيرًا من التواصل الاجتماعيّ والتجاريّ. ما كان يجري في كفرناحوم لا عجب إذا بلغَ صداه إلى صُور. بمجيئه إلى منطقتها، وفّر يسوع على هذه المرأة وعلى ابنتها المريضة مشقّة السفر جنوبًا للقائه. لمَ لا وغيرها سبقها إلى البحث عنه والالتجاء إليه ولو كان على بُعد مئات الكيلومترات؟ "وتبع يسوعَ جمعٌ كبير من الجليل... ونواحي صُور وصيدا، وقد سمعوا بما يصنع فجاؤوا إليه" (مر ٣: ٨).

إذًا يسوع الشافي هنا في صُور، والمرأة أمّ، ولديها "ابنة صغيرة" ("ثيغاتريون") مريضة. يسوع طاردُ شياطين، ومرض ابنتها مسٌّ شيطانيّ. تكتمل إذًا دوافع التحرّك: المريض شخص عزيز، والطبيب "المختصّ" بمتناول اليد. هو غريب. لكن لا يمكن لرجل، حتّى لو كان غريب الدين والعِرق، ألاّ يرقّ قلبه لطلب أمّ تستنجده من أجل شفاء ابنتها. هكذا فكّرت المرأة، وهذه كانت استراتيجيّتها لاقتحام المشهد. ذهبت "في الحال" إليه، وكسرت العزلة التي فرضها على نفسه. لم تأبه لما يعنيه "البيت" من حميميّة وحرمة. المريضة ابنة، ومَن تطرق الباب أمّ.

أتت "وارتمت عند قدميه". ها هي طقوسُ الاسترحام قد بدأت، واستُهلَّت بحركة تنمّ عن احترام وإجلال، بل عن إيمان المرأة بما عليه يسوع. قيل إنّه نبيّ. فليكن، هو نبيّ! قيل إنّه المسيح. نعم، آمين. في الحركة إذًا إيمانٌ مُعلَن. وما يطلبه يسوع عادةً كشرط مُسبَق كي يُقدم على الشفاء، ها هو موجود وأُعلِنَ عنه، ولو بحركة. ولكي يلفت الإنجيليّ اهتمام قارئه إلى أهمّيّة هذه السجدة الإيمانيّة، قال فورًا في

جملة اعتراضيّة، ولو على حساب أناقة الأسلوب: "وكانت المرأة يونانيّة من أصل سوريّ–فينيقيّ". بتعبيره "يونانيّة" (هنا فقط وفي أع ١٧: ١٢)، لا يهتمّ مرقس بجنسيّة المرأة ولا بلغتها، إنّما بدينها: التي ترتمي عند قدمَي ذلك اليهوديّ تعلن إيمانها هي امرأة وثنيّة! ليس هذا فحسب، هي أيضًا هجينة من خليط "سوريّ–فينيقيّ" ("سيروفينيكيسّا" بصيغتها المؤنّثة هي من اختراع مرقس وحده)، تمامًا كابنتها الهجينة التي تتساكنُ مع إنسانيّتها أرواحٌ شرّيرة. لاحظوا كيف عبّر مرقس عن مرض البنت. لم يقل: "ولها ابنة صغيرة **فيها** روح نجس"، بل "ولها ابنة صغيرة روح نجس". تماهت البنت مع ما يمسّها، فأضحى الروحُ النجس هي، وهي الروحَ النجس. إنّه العجز التامّ. لهذا لا ضرورة لأن يذكر مرقس اشتراكات المرض ويصف اضطراباته على البنت الصغيرة. لا تُذكر الرضوض، ولا الرمي في النار والماء، ولا قذف الزبَد، ولا التقييد بالسلاسل، ولا السكن بين القبور، كما هو الأمر في حالة ممسوس أرض الجراسيّين الوثنيّة (مر ٥: ١–٥). يبدو أنّ الأرض "الغريبة" هي وِكرٌ للشياطين!

ومن الأمور اللاّفتة أيضًا أنّ المرأة لم تدعُ يسوع إلى الدخول إلى بيتها. تعرف تحفّظه تجاه هذه النقطة، فهو يهوديّ لا يدخل بيت وثنيّة لئلاّ يتنجّس. فلا ضرورة إلى أن يتجابه مع الروح النجس، كما هو الأمر في غالب حالات طرد الشياطين. المرأة تؤمن بأنّ يسوع قادر على أن يشفي عن بُعد. هذه نقطة أخرى أرادت تسجيلها لصالحها. لقد حاكت بذلك قائدَ المئة الذي، هو أيضًا، لم يدعُ يسوع إلى الدخول إلى بيته، لأنّه يعتبر نفسه غير أهلٍ لذلك، وآمن بأنّ مجرّد كلمة من يسوع تَفي بالغرض (مت ٨: ٨).

لماذا الرفض؟

إلى هنا يرتاح القارئ لمجرى الأحداث، وفي يقينه أنّ يسوع سيلبّي فورًا طلب الأمّ المستشفعة. كيف لا وهو سبق له أن قرأ كيف لم يتأخّر يسوع في الاستجابة لطلب يائيروس: هو أب، ولديه أيضًا "ابنة صغيرة" ("ثيغاتريون") مريضة، وأتاه كما أتته المرأة "مرتميًا على قدَميه" (مر ٥: ٢١–٢٣). ولاحقًا، في الفصل التاسع، سيسمع يسوعُ أيضًا صراخ أبٍ يشفع من أجل ابنه الممسوس (مر ٩: ١٤–٢٩). وهو أيضًا سيلبّي، ولو بعد رفض، نداء عاملِ الملك ويشفي ابنه، أيضًا عن بعد (يو ٤: ٤٣–٥٤). وإذا كان استجاب لطلب قائد المئة في شفاء خادم، فكيف يرفض شفاء ابنة (مت ٨: ٥–١٣)؟ هذه الخبرات التي يعرفها القارئ تريحه وتجعله ينام على حرير: يسوع لن يتأخّر في استجابة طلب الأمّ الفينيقيّة.

لكنّ حساب البيدر لم يكن كحساب الحقل. يسوع يردّ طلب الأمّ. وبحزم. "دَعي البنين أوّلاً يشبعون، فلا يحسن أن يؤخَذ خبز البنين، فيُلقى إلى صغار الكلاب". يا له من جواب غير متوقّع! ويا للمفارقة: يسوع يتكلّم لغة "البنين"، ونسي أنّ مَن رمت نفسها أمامه إنّما هي أمّ والمريض ابنتها الصغيرة!

لا يحتاج القارئ إلى الجهد الكبير كي يفهم مقصد يسوع: البنون هم اليهود (راجع أش ٣٠: ١؛ ٦٣: ٨؛ إر ٣: ١٩؛ هو ١١: ١؛ يو ١: ١٢؛ ١١: ٥٢؛ رو ٨: ١٦-١٧، ٢١)، وصغار الكلاب هم الوثنيّون. ما أغفل مرقس عن شرحه هنا، أورده متّى في نصّه المقابل: "لم أُرسَل إلاّ إلى الخراف الضالّة من بيت إسرائيل" (مت ١٥: ٢٤). باختصار، إنّه رفضٌ واضح لا لُبسَ فيه.

في الواقع أُحرِج يسوع بهذا الطلب. وهذا الحرج لم يظهره مرقس بشكل واضح، على عكس متّى الذي وصف بتدرّج كيف تهرّب يسوع من الاستجابة لطلب المرأة: أوّلاً تجاهلها ولم يُجبها بكلمة، ثانيًا رفض تدخّل التلاميذ لصالحها، ثالثًا رفضَ طلبها عندما كرّرت سؤلها (مت ١٥: ٢٣-٢٥). هذا كلّه لا نجده في مرقس. فيسوع عنده ليس محاطًا بالتلاميذ، وهو بالتالي غير مُجبَر على مراعاة خاطر أحد، فإذا رفضَ فإنّه يرفضُ مباشرة.

ومن ميّزات نصّ مرقس أيضًا إضافته كلمة "أوّلاً" ("بروتون"): "دَعي البنين يشبعون أوّلاً". يفترض هذا التعبير بحدّ ذاته وجود مرحلة لاحقة يحقّ فيها للوثنيّين أن يشبعوا، بحيث يأكل اليهود أوّلاً، ولاحقًا غير اليهود. هناك إذًا تتابع زمنيّ. غير أنّ كلمات يسوع اللاّحقة، "لا يَحسن أن يؤخذ خبز البنين ويُلقى إلى صغار الكلاب"، تعاكس منطق كلمة "أوّلاً"، إذ تنفي كلّ حقّ للوثنيّين في مشاركة اليهود الخيرات الموعودة، لا أوّلاً ولا ثانيًا. ولكي يتجنّب متّى هذا اللّغط، حذف "دَعي البنين يشبعون أوّلاً"، واكتفى بالقسم الثاني من الجملة.

التعبير اليونانيّ الذي يُترجم هنا بـ"لا يحسن أن"، يُستعمل عادةً في الأمثال الحكميّة وفي التعبير عمّا هو حسن أو غير حسن في عينَي الربّ (راجع تك ٢: ١٨؛ طو ٨: ٦؛ يهو ١٠: ١٩؛ أم ١٧: ٢٦؛ ١٨: ٥؛ ٢٤: ٢٣؛ ٢٥: ٢٧). إذًا هناك إرادة إلهيّة تحكم في الأمور: لا يحسن في عينَي الربّ أن تُلقى كلمة الله للوثنيّين، ولا مشيئته تقضي بذلك. "لا تعطوا أقداسكم إلى الكلاب"، قال يسوع في إنجيل متّى (مت ٧: ٦). إنّها إذًا قصّة مشيئة إلهيّة، ويسوع لا يقدر أن يزيح عنها، لأنّ "طعامه هو أن يعمل بمشيئة الآب الذي أرسله" (يو ٤: ٣٤). وهذا في الواقع ما حصل، لأنّ التقليد الإنجيليّ كلّه، بالإضافة إلى بولس الرسول (رو ١٥: ٨-٩)، كلّهم يُجمعون على أنّ يسوع لم يقم بأيّ نشاط رسوليّ في أراضٍ وثنيّة، بل اقتصر عمله بين اليهود. لقد آمن بأنّ اليهود هم أصحاب العهود والوعود، وبأنّ المسيح أوّلاً يأتي منهم ولهم. وما تذكره الأناجيل عن تحرّكاتٍ له في أراضٍ وثنيّة، من شفاء هنا ومن كلام هناك، إنّما يأتي من باب الاستثناء وليس القاعدة، ومع أشخاص وليس مع جماعات، تمامًا كما سيحصل لاحقًا مع بطرس الرسول في تعميده كورنيليوس الوثنيّ (أع ١٠).

والكنيسة الرسوليّة، في سنيها الأولى، ظلّت وفيّة لتقليد يسوع هذا، ولم تنفتح على الوثنيّين إلاّ بعد جهد جهيد وبعد "عمليّة جراحيّة" صعبة كان لا بدّ من إجرائها في جسم الكنيسة الغضّ. و"الطبيب الجرّاح" وقتها كان بولس الرسول. هناك إذًا تقليد كنسيّ قديم شعاره "اليهوديّ أوّلاً ثمّ

اليونانيّ". وهذه التراتبيّة ظلّت متّبعةً حتّى عند بولس نفسه، سواء في تعليمه (راجع رو ١: ١٦؛ ٢: ٩-١٠؛ أف ٢: ١١-١٨؛ راجع أيضًا أع ٣: ٢٦؛ ١٣: ٤٦)، أم في ممارساته. ففي سفراته التبشيريّة بين المدن، كان بولس يتوجّه أوّلاً نحو مجامع اليهود ومن ثَمّ نحو الوثنيّين. سيأتي وقت يندثر فيه هذا الشعار ويتقلّص مناصروه، وتصبح الأوّليّة — وهنا المفارقة — للبشارة بين الأمم والأحقّيّة للفوز بهم لحساب الإنجيل. إنجيل مرقس نفسه يعكس هذا التطوّر الحاصل: "ويجب أن تعلن البشارة **أوّلاً** ("بروتون") إلى جميع الأمم" (مر ١٣: ١٠).

وهناك من يعتبر نصّ المرأة الفينيقيّة بمثابة جسر عبور بين المنطقَين، منطق الانغلاق ومنطق الانفتاح، كونه يأتي ضمن وَحدة أدبيّة تُسمّى "وَحدة الخبز" (مر ٦: ٦ب-٨: ٢٦)، التي تقع بين نصَّي معجزة تكثير السمك والخبز (مر ٦: ٣٥-٤٤ و ٨: ١-١٠). ومن المعلوم أنّ النصّ الأوّل للمعجزة هو ذو نكهة يهوديّة (تمّت المعجزة في أرض يهوديّة، ومع يهود، والاثنتا عشرة قفّة الباقية ترمز إلى الأسباط الاثني عشر)، والثاني ذو نكهة وثنيّة (أرض وثنيّة، ومع وثنيّين، ورقم سبعة ذو بُعدٍ كونيّ). بوقوعه في الوسط، وبمشاركته مع نصّ المعجزة بتعبيرَين مشترَكين، "الخبز" وفعل "شبع" (٦: ٤٢؛ ٨: ٤، ٨)، يكون نصّ المرأة الفينيقيّة قد مهّد للانفتاح نحو الأمم الآخذ في التبلور، والذي تظهر ملامحه جليًّا في نصّ المعجزة الثاني. الخبز الذي سيُعطى إلى الفينيقيّة يرمز طبعًا إلى الإفخارستيّا المسيحيّة التي يجب أن تُوزَّع على الجميع وتُشبع الكلّ، فتُجسّد بذلك وحدةَ المؤمنين، يهودًا كانوا أم وثنيّين (١كور ١١: ١٧-٣٤).

لماذا "الكلاب الصغيرة"؟

"الكلاب"، ولو صغارًا، تعبير قاسٍ وجارح. في التقليد الإنجيليّ كلّه لا نجد كلامًا قاسيًا كهذا يوجّهه يسوع إلى مَن يأتيه سائلاً شفاءً أو معونة. هذا التعبير هو ربّما من أجبر لوقا على أن يُسقط هذا النصّ من إنجيله. يستعير مرقس من اللغة اليونانيّة الشعبيّة عبارة "كيناريون" للتعبير عن "صغير الكلب"، وهي عبارة غريبة بعض الشيء، لا وجود لها لا في العهد الجديد ولا في القديم اليونانيّ، لأنّ صيغة التصغير المفضّلة في اليونانيّة هي "كينيذيون". من هنا أتى من يترجم "كيناريون" بـ "كلاب أليفة"[٢]، وهي كلاب البيوت، التي تتساكن والإنسان داخل البيت، على عكس تلك الشرسة الشاردة في البراري والشوارع. إنّ عادة تربية الكلاب في البيوت ليست غريبة عن اليهود، لكنّ كلاب الشوارع يعتبرونها نجسة

---

[٢] راجع مثلاً: BAUER, W. – GINGRICH, F.W. – DANKER, F.W., *A Greek-English Lexicon of the New Testament and Other Early Christian Literature*, Chicago (IL) – London 1979², p. 457.

وهي محطّ كره شديد لديهم. إنّها نجسة، وبالتالي الوثنيّون نجسون مثلها. يجد بعض المفسّرين في استعمال مرقس الصيغة المصغّرة لكلاب نوعًا من التلطيف لقساوة العبارة. لكنّ التلطيف لا يكمن في صيغة التصغير، بل في اللغة الرمزيّة التي استعملها يسوع. لم يتكلّم مع المرأة لغة مباشرة بل رمزيّة، تعبيريّة، مثَليّة (نسبة إلى مَثَل). فهمت المرأة مراده، وردّت هي أيضًا بالطريقة ذاتها باستعمال الرمز. لغةٌ كهذه تكسر بالطبع من حدّة الكلام، من دون أن تلغيه. على القارئ أن يعلم أنّ لذلك العصر مفرداته ومصطلاحاته التي يمكن أن ينفرَ منها اليوم. في أكثر من مكان في البيبليا يُنعَت الوثنيّ أو المجدّف أو الشرير بالكلب (مز ٢٢: ١٧؛ أم ٢٦: ١١؛ مت ٧: ٦؛ ٢بط ٢: ٢٢؛ رؤ ٢٢: ١٥). لكنّ هذا لا يلغي التساؤلَ الجدّي الذي سيُطرَح: في النصّ الذي يسبق نصّنا (مر ٧: ١٤-٢٣)، يتكلّم يسوع على الطاهر والنجس من الطعام، ويعتبر أنّ "كلّ الأطعمة طاهرة" وما من شيء نجس، ناقضًا بذلك ركنًا أساسيًّا هو من أركان الهرم الدينيّ اليهوديّ، الذي كان يُعير التمييز بين الأطعمة اهتمامًا بالغًا (راجع مثلاً أع ١٠: ١٠-١٦). إذا كان يسوع مُصلِحًا في مجال الأطعمة، فكيف لا يكونه فيما يختصّ بالبشر؟ هل لا تزال لديه شعوب نجسة وأخرى طاهرة؟

القارئ ينتظر بلهفة جواب المرأة. ماذا ستقول؟ كيف ستردّ؟ ردّت بجرأة نادرة. الملفت في الأمر أنّ جوابها لم يعاكس رأي يسوع، بل جاراه إن لم نقل وافق عليه. متّى هنا استهلّ جواب المرأة بـ"نعم": "نعم يا ربّ، فصغار الكلاب..." (مت ١٥: ٢٧). لدى مرقس نجد الإيجابيّة ذاتها ولو نقصت "نعم". لم ترفض المرأة امتيازات اليهود، بل جلّ ما تطلبه هو المشاركة، وفي مستواها الدون: من "تحت المائدة"، وفي "الفتات" لا في الخبز. هي تعرف أنّ اليهود لهم الحصريّة في "الجلوس على المائدة في ملكوت السماوات" (مت ٨: ١١). حسبُها أن تكون "تحت المائدة".

موافقة المرأة هذه هل هي من أجل البنت الصغيرة، وبالتالي تنازل نفعيّ؟ لا ربّما أكثر، لأنّ الوثنيّين كانوا يُدركون حقيقة أمرهم عند اليهود، ويعرفون بأيّ عيون كان هذا الشعب المختار ينظر إليهم.

"يا ربّ". هكذا نادت المرأة يسوع. إنّها المرّة الوحيدة في مرقس التي يُنادى فيها يسوع بهذا اللّقب (في مر ٥: ١٩ و١١: ٣ لا تأتي العبارة بصيغة المنادى). "يا معلّم"، كانت أحبّ إلى قلب مرقس من "يا ربّ" (مر ٤: ٣٨؛ ٩: ١٧، ٣٨؛ ١٠: ١٧، ٢٠، ٣٥؛ ١٢: ١٤، ١٩، ٣٢؛ ١٣: ١). يسوع بنظر المرأة هو السيّد، المسيح، ذلك الإنسان الذي يطوّبه وينتظره جيرانها اليهود. أمرٌ ملفت: هنا هي مرأة فينيقيّة غريبة مَن تعترف به سيّدًا، ولاحقًا، عندما يُعلَّق السيّد على خشبة، هو قائد المئة شريكها في الوثنيّة مَن يعلنه ابن الله (مر ١٥: ٣٩). يا لها من مفارقة! يسوع من جهة يدافع عن حقوق اليهود ويحصر أكل "الخبز" بهم، وهم من جهة مقابلة تركوا إلى غيرهم الاعتراف به مسيحًا وابنًا لله!

اشتهت المرأة هنا ما اشتهاه في مكان آخر لعازر المسكين (لو ١٦: ١٩-٢٢): هي أن "تشبع" من الفتات المتساقط عن موائد البنين، وهو أن "يشبع" ممّا وقع من مائدة الغنيّ؛ هي ارتضت أن تتشبّه بالكلاب الصغيرة، وهو لم يكن له سوى الكلاب لتأتي وتلحس قروحة وتخفّف أوجاعه. لكن هي وهو كَسبَا الرهان في النهاية.

لماذا الرضوخ؟

جواب المرأة أذهل يسوع. يرى نفسه مجبرًا هو على مجاراتها. لقد جرّته إلى حيث أرادت، لا هو إلى حيث أراد: " لقد ساعدته، قال أحدهم، على اكتشاف إرادة الله"[٣]. بلى، "حسنٌ هو" الذي تقول أنت عنه إنّه "ليس حسنًا". ولكي يخفّف البعض من وقع الصدمة، يقولون إنّ يسوع أسمع المرأة كلامًا قاسيًا لكي يستدرجها إلى الإيمان؛ وغيرهم: لكي يعلّم تلاميذه كيف يكون المؤمن الحقيقيّ. لكن، أين التلاميذ في النصّ؟ غائبون. ومن ناحية أخرى، ليس من عادة يسوع أن يحقّر أناسًا كي يستدرجهم إلى الإيمان، ولا أن يستغلّ حاجة الآخر أو رغبةً ما عنده كي يقتنصه. سبق وقلنا إنّ الكلّ متّفقون على أنّ غاية يسوع في تلك الأرض الغريبة لم تكن استدراج الوثنيّين إلى الإيمان، ولا إلقاء الكلمة إليهم. أراد التخفّي والراحة فحسب.

في حديثه مع امرأة أخرى، السامريّة، كما رواه يوحنّا (الفصل ٤)، كان يسوع هو المبادر والمسيطر على الوضع والماسك بزمام الحوار، وكانت المرأة بالتالي تنجرّ إلى حيث يريد هو. هنا، حصل العكس. فاقت الفينيقيّةُ السامريّةَ حنكةً وجرأة. حوارها مع يسوع آخّاذ، فاحتلّ أكثر من نصف النصّ، ولم يُبقِ لخبر المعجزة، بحدّ ذاتها، إلاّ كلمات قليلة في البداية والختام (آ ٢٥-٢٦ و ٢٩-٣٠). لذلك قال بولتمان البحّاثة الألمانيّ الشهير: "ما يُروى هنا ليس المعجزة بحدّ ذاتها، لأنّ الأساسيّ هو **التغيير في موقف يسوع أثناء الحوار**. إنّه نوعٌ من الحوار-الجدل الذي فيه يسوع يكون، هذه المرّة، هو **المغلوب**"[٤]. لقد صدق هنا المَثَلُ الفرنسيّ القائل: "Ce que femme veut, Dieu veut".

"لأجل كلمتكِ هذه إذهبي". لقد ألقى يسوع سلاحه. صياغة الجملة تدلّ على أنّ يسوع انذهل بـ"كلمة" المرأة "هذه". شرط الإيمان اكتمل، بل فاض. فلماذا الامتناع عن التحرّك. هي أيضًا "ابنة ابراهيم". لم يتأخّر متّى في أن يسمّي ما أغفل عن تسميته مرقس: "ما أعظم إيمانك أيّتها المرأة، فليكن لكِ ما تريدين" (مت ١٥: ٢٨). ليحصلْ الشفاء، فورًا وعن بُعد. ما عليها إلاّ أن تذهب وتجد ابنتها تمامًا كما قال يسوع: الشيطان "خرج" (بصيغة الماضي التامّ) منها حقًّا، وهي "ملقاة" بسلام على السرير من دون أيّ اضطراب.

---

[٣] Jean-Marc BABUT, *Actualité de Marc*, Lire la Bible 126, Cerf, Paris 2002, p. 145.

[٤] Rudolf BULTMANN, *L'histoire de la tradition synoptique*, Seuil, Paris 1973, p. 57.

خاتمة

صُور قديمًا قاومت الاسكندر، وابنتها لاحقًا "قاومت" يسوع. صُور سقطت، وابنتها ربحت الرهان. لن يتصالح القارئ مع هذا النصّ ولا مع كلمة "صغار الكلاب"، إن لم يستوعب فكرة أنّ تغييرًا لا يمكن إخفاؤه قد طرأ على موقف يسوع بعد "كلمة" المرأة. ما قبل اللّقاء ليس كما بعده. ليست الأطعمة وحدها كلّها طاهرة، بل البشر أيضًا. لا يظهر يسوع هنا كما نحبّ عادةً أن نراه: رجلاً خارقًا، "سوبرمان"، ذا أجوبة مُحكَمة ومفحِمة. بل نراه رجلاً يرضخ "لضغط" امرأة، ويُعيد حساباته، ويخضع لمبدأ تطوّر الفكر. فما مصلحة مرقس في إظهار يسوع هكذا؟

في هذا الإطار يقول البعض إنّ هذا النصّ كُتب على ضوء قصّة النبيّ إيليّا مع أرملة صرفت صيدا (١مل ١٧: ٧-٢٤)، فيكون مرقس قد أراد أن يُظهر يسوعَ إيليّا جديد. لكنّ الهمّ اللاّهوتيّ الذي يعكسه نصّ إيليّا مغاير عمّا نجده هنا عند مرقس. لا "كلاب" هناك، ولا ممانعة عند إيليّا في التحرّك، بل على العكس تمامًا كان هو المبادِر في لقائه المرأة الفينيقيّة.

ويقول آخرون: إنّ الحوار الذي دار بين يسوع والفينيقيّة ليس تاريخيًّا، بل هو من اختراع الكنيسة التي أسقطته على يسوع كي تبرهن لاهوتها التقليديّ: اليهود أوّلاً ثمّ اليونانيّون. ويقولون أيضًا: الشفاء نعم تاريخيّ، لكنّ الحوار لا. غير أنّ سؤالاً يُطرَح: ما الذي يجبر جماعةً على أن تذكر نصًّا في كتابها، يكون معلّمها فيه قاسيًا إلى هذه الدرجة، ما لم يكن الحدث الذي يرويه النصّ واقعًا تاريخيًّا بالفعل؟ هذا ما يُسمّى مقياس "الإحراج الكنسيّ" الذي يُستعمل عادة في تحديد ما إذا كان الحدث المروى يرتقي فعلا إلى حقبة يسوع التاريخيّ أم لا.

القضيّة إذًا ليست قضيّة ذوق واحترام، كما أجابني أستاذي، ربّما مازحًا، بل قضيّة مفهومٍ تطوّرَ في فكر يسوع. كان اللّقاء مع المرأة محورًا حاسمًا في استدارة فكر يسوع نحو الأمم. صحيح هو لم يبشّر بنفسه مدنًا وثنيّة، ولكنّه، بُعيد قيامته، أوصى تلاميذه بذلك (مت ٢٨: ١٩). "أوّلاً" اليهود ستضحي "أوّلاً" للأمم (مر ١٣: ١٠). نصّ المرأة الفينيقيّة إنّما هو إشارة لما سيتغيّر، إشارة سيتوضّح معناها أكثر عند أقدام الصليب، عندما يعلن وثنيّ آخر، قائد المئة، أنّ ذاك "الرجل إنّما هو ابن الله حقًّا" (مر ١٥: ٣٩).

الأب ميلاد الجاويش المخلّصيّ